الفصل الثاني عشر

معايير ماكس فيبر في المدينة
المدينة العربية الإسلامية أنموذجاً

مقدمة

المدينة تعبير جذّره اللغويون المسلمون من كلمة (مدن ومدّن) وحدّدوها بأنها المكان أو الموضع الذي يجتمع فيه الناس حصراً، من دون توضيح الحدود العددية لهؤلاء الناس. فهي في تعبير ابن خلدون القرار الذي تتّخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه فتؤثّر ـ يقصد هذه الأمم ـ الدعة والسكون وتتوجّه إلى أتخاذ المنازل للقرار"[1].

فالتجذير اللغوي زائداً التجذير الخلدوني الحضري للمدينة يتفق موضوعياً مع ما عبّر عنه جمهور الفقهاء المسلمين بقولهم إن المدينة هي وطن ((مجتمع المنازل)) الذي لا يظعن أهله عنه ولا يرحلون صيفاً كان أم شتاءً. والمدينة عند المسلمين تعادل الحاضرة والحضرة وتقترب من الحضارة التي إنما يقصد بها الأقامة في المكان ـ أي الاستقرار ـ[2]. هذا ما تصرّح به المصادر العربية الإسلامية. أما أصل المدينة في اللاتينية خاصة والأوربية بوجه عام فيتجذّرمن تعبير Civitas المتطابق إلى حدّ كبير مع الأصل الإنجليزي والفرنسي والأسباني والإيطالي والألماني City, Cite, Ciudad, Stadt. وتأسيساً على آثار ومخلفات الحضارات القديمة فإن القرية الأولى التي بدأت فيها الحضارة الناضجة حين أفلح الإنسان في عملية تدجين الحيوانات، وحين مارس الزراعة بوصفها نمطاً إنتاجياً كان متوافّرا في وادي الرافدين قبل عشرة آلاف سنة في قرى عديدة نظير شاندرار وزرزي وتمريك وغيرها. وتعدّ قرية جرمو في شمال العراق واحدة من القرى الزراعية التي اكتشفها الآثاريون ويعود تاريخها إلى أكثر من ٦٧٠٠ سنة قبل الميلاد، وتقع إلى الشرق من مدينة جمجمال وعلى بعد نحو أربعين كيلومتر إلى الشرق من مدينة كركوك. فبدء الحضارة إذن قد ولد في هذه القرى ولم تضع وليدها في الحضارة الغربية الكلاسيكية ـ اليونانية والرومانية. وقد استدل على ذلك الباحث الأثري البروفسور بريدوود في كتابه (إنسان ما قبل التاريخ) Prehistoric Man المطبوع

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة (دار الفكر) ص ٢٧٥.

(٢) ينظر الجوهري: اسماعيل بن حماد، تاريخ اللغة وصحاح العربية (مادة حضر)؛ الزمخشري، محمود بن عمر: أساس البلاغة (مادة مصر)، الفيروز آبادي: القاموس المحيط (مادة مدن)؛ الزبيدي، تاج العروس (مادة مدن).

في ١٩٤٨ وكتابه الآخر (الشرق الأدنى وأسسه الحضارية) المطبوع سنة ١٩٥٢، من اكتشاف ما يقدر بخمس وعشرين بيتاً ضمّ تجمّعاً سكنياً تقدر نفوسه بحدود مائة وخمسين نسمة. وقد تطورت أمثال هذه القرى الكبيرة، إلى مدن، ومدن دول City States في عصر فجر السلالات[١].

فأنموذج القرية الزراعية تعدّ اساساً لظهور ونشوء أقدم المدن في العالم قبل الإنتقال إلى مرحلة الصناعة والتجارة. وانسجاما مع هذا التفسير يذهب[٢] أشلي الألماني المختّص في تاريخ المدن والذي سبق ماكس فيبر ولاسيما في المعايير التي وضعها لتكون قانوناً في التمييز بين المدينة والبلدة والقرية إلى ما ترجمته: - الكثير من المدن قد ولدت ونمت من القرى، فالسمة الزراعية التي وصفت بها المدن الصغيرة في القرون الوسطى في أوربا يضاف إلى ما ترك فيها من مخلفات إثرية لأدوات زراعية مستعملة، وكذلك الأعمال التي قام بها المزارعون في الأراضي الزراعية؛ كل ذلك يشابه ما هو عليه في المزارع الريفية القروية[٣].

نخلص من هذا إلى القول بأن المجتمع العراقي القديم قد قدّم أنموذجاً زراعياً فريداً ترجع جذوره التاريخية إلى الأزمنة القديمة من تاريخ قبل الميلاد. وليس جديداً القول بأن حضارة بلاد الرافدين من بين تلك الحضارات القديمة التي ولدت وترعرت وتأسست في المدينة العراقية أيضاً. وأن التاريخ العراقي القديم يبين بجلاء دور سكّان العراق ومصر وبلاد الشام في الميادين الحضارية والإقتصادية والسياسية؛ وأن هناك دولاً وأسراً بل إمبراطوريات فرضت وجوداً عسكرياً وسياسياً كبيراً في بلاد الرافدين والنيل ووادي السند إنما عرفت واشتهرت بأسماء مدنها ومراكزها الحضرية، وتسمّت

---

(١) ينظر باقر، د. طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (القسم الأول تاريخ العراق القديم) بغداد ١٩٥٥، ق١، ص ٥٧-٦٦.

(2) Ashley, W.J."The beginnings of town life in the middle Ages "in the Quarterly Journal of Economics (July/1896) p.402.

وفي المعنى نفسه يذهب ميتلاند Maitland في كتابه البلدة والضاحية Township and Borough! كمبردج ١٨٩٨).

إذ يقول أن أصل المدينة يرجع تاريخياً إلى القلعة والـ Burg وهذا يعدّ أساس النظرية العسكرية في نشوء المدن P.18,24.

(3) Ashley, The beginingsp, 402.

باسمائها نظير دولة لكش ودولة لارسا ودولة أور ودولة الوركاء ودولة بابل وغيرها من الدول التي عرفت بدويلات المدن السومرية. فهذا كلّه يشير بوضوح إلى النواة المركزية التي تشكّلت حولها تلك الدول وهذه النواة هي ببساطة المدينة.

وقبالة ذلك نستشهد بقول بيرين في كتابه المذكور آنفا (مدن العصور الوسطى Medieval Cities) ليس من قبيل المقارنة والمحاججة، إنما لكي يكون مدخلاً لمناقشة المعايير الخمسة التي افترضها الروفسور ماكس فيبر (أو ويبر)، تلك التي أصبحت بالنسبة إلى المفكرين وعلماء الإجتماع الحضري من الغربيين وعدد من المتخصّصين في حقل المدن، القانون الأساس في التميز بين المدن وبين غيرها كالبلدات والقرى الكبيرة. فيرى البروفسور بيرين أن ظهور المدينة في أوربا قد أشّر بداية حقبة جديدة في أوربا الغربية. وحتى ذلك الوقت فإن المجتمع الأوربي لم يكن يعرف سوى طبقتين فاعلتين في المجتمع الأوربي هما:- رجال الدين والنبلاء، بمعنى أدق المجتمع الزراعي[١].

تطور مهم في دراسة المدينة:

مما لا شك فيه أن العلماء الغربيين قد عنوا عناية كبيرة بدراسة المدينة من حيث فلسفة نشوئها وتطوّرها وانحلالها، كذلك أولوا أهمية الى مسألة تتعلق بتحديد تعريفها والكيفية أو بالأحرى المعيار الذي يمكن التمييز به بين الموضع = القرية أو الموضع = البلد أوالموضع = المدينة. وانطلاقا من هذه الزاوية الضيقة إستخدم لويس ممفورد المدينة لتكون عنواناً لكتابه الذي يظهر فيه الأطار المفاهيمي المبدئي لهذه الأنواع من المراكز الحضرية من دون أن يفكّك المصطلح إلى بلدة Town[٢] أو مدينة City؛ فعنوان كتابه The City in History وقد ترجم إلى اللغة العربية بعنوان (المدينة على مرّ العصور). فإذا ما رجعنا إلى الوراء أي قبل زمن العالم ممفورد، سوف نلتقي بالعالم الإيطالي جيوفاني بوتيرو وهو من أعلام القرن السادس عشر للميلاد. أنه الآخر كان

(1) Pirenne, H.Medieval Cities (Princeton, 1925) p. 221, idem "les villes sont L'ouvre des Merchands" in Revur Historique, Volume L VIII/P. 76-102.

(2) Mumford, Louis: The City in History (New York 1961).

وقد ترجم إلى اللغة العربية بعنوان (المدينة على مرّ العصور) ترجمة إبراهيم نصحي: القاهرة، ١٩٦٤.

مدركاً حيوية تعبير المدينة من دون عملية تفكّيك وتميز، فكان عنوان كتابه عظمة المدن The Greatness of Cities[١] مسلطاً الضوء على الوشيجة الوطيدة بين نشوء المدينة وبين العامل الأساس في هذه العملية التطورية الحضارية. نذكر ذلك دون أن نعرّج على أنه ـ أي بوتيرو ـ قد تأثر بما لا يقبل الشك فيه بنظرية العالم ابن خلدون في قوة وفاعلية العامل السياسي في نشوء المدن أو بالأحرى في عموم نظريته التعاقبية[٢].

وتأثرا بهذه الرؤى الواضحة للمدينة إنطلق المؤرخون في أوربا، وكانوا في حقيقة الأمر هم الذين بادروا إلى تطبيق هذا الشأن في فلسفة قيام المدن وتطورها وانحلالها، كما هو الحال في دراسات سوفاجيه الفرنسي ولويس ماسنيون وكلود كاهين ولويس كارديه وتورينو وبوتي وغيرهم، على المدن العربية الإسلامية. وبحق فإن هذه الدراسات وغيرها تعدّ هي الدراسات الرائدة في ميدان التمدن Urbanization إذ إن هؤلاء العلماء الغربيين قد تعاملوا مع المدينة العربية الإسلامية من ذات المفهومية السابقة. فهي مدن، من دون الخوض في عوامل الغموض أو عناصر التشكيك بأن هذه المدن ليست سوى بلدات أو قرى .Villages وأقصد من ذلك بأن المؤرخين الروّاد للمدن العربية من المستشرقين لم يضعوا قوالب قانونية جاهزة وجامدة لا محيد عنها، كما أنهم لم يفرضوا شروطاً أو معاييراً عليها.

وقد غلب هذا الإتجاه في دراسات المستشرقين ردحاً من الزمن إلى حين بروز إتجاهات عديدة. ولنقل فلسفات عديدة في هذا المجال، ونشير إليها إجمالاً على الوجه الآتي :-

ـ الأكثر صحة تحديد المجموعة الأولى بمجموعة العلماء ممن فرضوا شروطاً فضلاً عن معايير يتمّ على نسقهاوأساسها تصنيف المراكز الحضرية تبعاً لمراتبها ويدخل ضمن هذا التصنيف تاريخياً المدرسة الألمانية ـ إن جاز لنا ذلك في وصفها بالمدرسة ـ أو مدرسة علماء أواسط أوربا متمثّلة أولاً بمؤرخ المدن الألماني وليم

---

(1) Giovanni Botero: A Treatise Conccmnig the Causes of the Magnificency and Greatness of Cities (Translated from Italian by Robert Peterson 1906, (London 1965).

(٢) ينظر ناجي: د. عبد الجبار: "موقف أبن خلدون من عوامل نشوء المدينة العربية الإسلامية وتطورها" المنشور في مجلة الحكمة ـ عدد آيار ١٩٩٨، ص ١٠٦.

آشلي وميتلاند[١] إذ قدّم الأول بحثاً ممتازاً نشره في المجلة الفصلية الإقتصادية عام ١٨٩٦ وخصّصه لدراسة بدايات أحوال المدن Towns في العصر الأوربي الوسيط. وبلغ هذا التوجّه المعياري للمدن أوجّه في النصف الأول من القرن العشرين في كتاب عالم الإجتماع الحضري الألماني ـ الأمريكي ماكس فيبر الذي يحمل عنوان المدينة The city[٢].

ـ ويبدو أن معايير فيبر قد أخذت حيّزا واسعاً وانتقلت من دور النظرية في الكتاب المذكور آنفا إلى حيّز التطبيق على جملة من النماذج للمدن في العالم وكذلك في إسهامات عديدة. ومن الطريف ذكره أن المساهمين الروّاد فيها ينتمون أيضاً إلى مدرسة أوربا الوسطى وإلى المدرسة الألمانية بوجه خاص نظير غوستاف فون كرونباوم الألماني الأصلي الأمريكي الجنسية والسكن والعمل، فالأخير بدأ دراساته التمدنية ببحث قيّم نشره في مجلة Scientia عام ١٩٥٥ بعنوان (المدنية الإسلامية والمدينة الهيلينية). ثمّ أردفه ببحث آخر عنوانه (بنية المدينة Town الإسلامية) ونشره في كتاب يضمّ بحوثا عديدة وعنوانه Islam ونشر عام ١٩٦١[٣].

وممن أيّد منظور كرونباوم التطبيقي لمعايير ماكس فيبر المستشرق الألماني ـ الإنجليزي ستيرن أو شتيرون في بحث تقدّم به إلى مؤتمر تمّ عقده في جامعة أكسفورد عام ١٩٦٥ بعنوان (المدينة الإسلامية) وطبعت أعمال هذه الندوة في عام ١٩٧٠. وعنوان بحث شتيرن يشابه عنوان بحث كرونباوم مستخدماً كلمة Constiution بدلاً من Srtucture (بنية أو دستورالمدينة الإسلامية).

ـ ثم ظهر تحول نوعي في تطبيق المعايير الفيبرية على المدن الإسلامية، إذ أقبل علماء الإجتماع الحضري الأمريكان على استثمارها في دراسة المدن الشرق أوسطية

---

(١) ينظر بحث Ashley السابق الذكر وكتاب فردريك وليم ميتلاند Frederick W. MaitLnad.

(٢) ينظر:

Weber, Max: The City (Translated and Edited by don Martindale, New Yprk 1965).

ويحتوي على عدة فصول والأول منها حول (نظرية المدينة).

(3) Von Gunbaum: "The Muslim Town and the Hellenistic Town" in Scieuta 1955, idem, "The structure of the Moslim Town" in Islam, essays in the Nature and Crowtly of a Cultural Tradition (London 1961).

والمدن الآسيوية. والأكثر طرافة هنا أن نجد أصول بعض هؤلاء العلماء في علم الإجتماع الحضري هي ألمانية أو وسط أوربية.

وهكذا نلاحظ أن أوربا الوسطى - ولأسباب عديدة يقف على رأسها المفهوم الأوربي المركزي للحضارة العالمية وربما لأسباب أخرى بعضها تاريخية لها مساس قوي بالمفاهيمية الحضرية الأوربية ولاسيما وأن مدناً رئيسة في أوربا كأثينا وروما ولندن وباريس تتمتع بتاريخ قديم - قد أنتجت إرهاصات الدراسات المتعلقة بالمدينة الأوربية والمدينة العربية الإسلامية. عندئذ كان المؤرخون هم الروّاد في أخذ زمام المبادرة في هذا التوجّه، غير أن تطوّراً ملحوظاً في مسيرة هذه الدراسات نوعاً وكماً قد ظهر في الستينيات والسبعينيات من هذا القرن، إذ استحوذت الولايات المتحدة على دراسات المدن سواء أكان ذلك في إثراء مكتباتها بالمؤلفات الدراسات العربية والإسلامية والأجنبية أم بالعناية الفائقة من قبل الجامعات الأمريكية في حقل الدراسات التمدنية والحضرية المقارنة وفي علم الإجتماع الحضري بصورة عامة. فلا غرابة أن يكون للمدن العربية الإسلامية نصيب وافر من هذه الدراسات إذ حظيت باهتمام علماء الإجتماع الحضري وبمساحة جغرافية واسعة. ومما يلفت النظر في التدقيق بالخارطة الجغرافية الحضرية للمدن العربية وفي الاهتمامات الميدانية نرى أنه بينما ركّز المستشرقون الفرنسيون، في سبيل المثال، على المدينة الإسلامية والأوربية في العصور الوسطى ومن الزاوية التاريخية فحسب، فقد أنشدّ الباحثون الأمريكان والمتخصّصون في الدراسات الحضرية في البحث والتحري عن أوضاع ومشاكل المدن الحديثة التكوين وبالأساس المدينة الأمريكية. حقيقة أن لويس ممفورد في كتابه (المدينة على مرّ العصور) يؤكد على ضرورة الحفر التاريخي في أصول المدينة، أي مدينة، وعلى التشديد في دراسة وظائفها[1] حينما يفكر المرء في وضع أسس جديدة لحياة تمدنية - حضرية مستقبلية. هكذا يرى ممفورد، ولكن الدراسات الأمريكية واقعياً لم تتأثر بهذا المنهج السليم. فالصفة الغالبة على أكثرها هو تعاملها حصرا مع الحداثة الحضرية ولم تعط اهتماما مركّزاً على الجذور التاريخية للمدينة تحت الدراسة. إن مثل هذا التفسير واقعي وواضح كلّ الوضوح بالنسبة للفلاسفة، ولا سيما أنهم باحثون يلاحقون مسائل لها علاقة بفلسفة أصل المدن ونشأتها وتطوّرها ومن ثم أنحلالها. فالمدينة الفرنسية والألمانية والإنجليزية وكذلك المدينة العربية في المغرب العربي

(1) Mumford, The city, p. 3.

وبلاد الشام ومصر والعراق وجنوب الجزيرة العربية تملك موروثاً تاريخياً قديماً، بمعنى أن مدن هذه المناطق لها تاريخ يمتدّ إلى مئات أو آلاف السنين، وهو تاريخ عريق في ميدان التمدن الحضري يأخذ الباحث الأوربي والشرقي إلى مسالك تاريخية بعيدة مع توافر الأدلّة الأثرية الغنية الداعمة لمنهجه في الدراسة. قبالة هذا الأرث التاريخي تفتقر المدينة الأمريكية إلى جزء مهم من هذه التاريخانية والعراقة والأصالة، فهي مدن حديثة النشأة وفوضوية في فلسفة وجودها وتطوّرها، ومبعثرة في طوبوغرافيتها وفلسفة تخطيطها[1] في هذه الحال يثار تساؤل فهل يتأسس على الباحث الأمريكي الحضري أن يغور في أعماق التاريخ لمدينة لا تاريخ لها ولا وثائق وأدلّة إثرية تدعم هذا الحفر التاريخي؟ لذا فقد غاب الدافع الذي يحثّ المختصّ في نظير هذه الدراسات على متابعة طريق التجذير والحفر التاريخيين، عندها لم يكن أمام العالم الأمريكي من خيارات واسعة.

ويخيل لي ان هذا هو الأساس المركزي لموقف ماكس فيبر، فهو موقف حرّي بالمشروعية إزاء ردود فعل الباحث الأمريكي من الدراسانات الأوربية عن المدن فهذا الباحث لا يرى في تاريخانية هذه المدن وجذورها أي معنى بل وأي ضرورة ولا سيما فيما يتعلق بالمفهوم الذي ينطلق منه في رؤية المدينة الأمريكية الحديثة. وأن أبسط تعريف له عن مثل هذه المدينة ذات الجذور التاريخية قوله إنها مدن قديمة تمتّ بصلة الى العلم القديم لا غير؛ وهي نماذج غريبة عن الشيء الذي يبحث عنه ولا سيما مع الإنشغال في البحث عن حلول للمشكلات التي تجابه المدن في الوقت الحاضر. ففي حالات عديدة ـ حينما كنت في الولايات المتحدة الأمريكية ـ أقرأ في الصحف الأمريكية مقالات وتقارير لها عنوانات مثيرة تظهر هجوم الصحافة على مشكلات المدينة الأمريكية الصحيّة والمتعلقة بالتلوث والجرائم السائدة والمتفشية في الأحياء الفقيرة الكائنة في المدن العملاقة مثل واشنطن ونيويورك؛ ناهيك عن كثرة المشكلات الإجتماعية الأخرى الظاهرة للعيان في كل لحظة. وهكذا وجدت الباحث الأمريكي في المدن الكبيرة منها والصغيرة يوجّه أهمية متزايدة وواقعا جلّ اهتمامه إلى المشاكل المعقدة التي تعيشها المدينة الأمريكية نظير زحمة السكّان بخاصة في الأحياء الفقيرة وتزايد الهجرة وتشوش بله إضطراب تخطيطها وغياب عوامل العمران الخلدوني في بعضها. أو خلاف ذلك، يوجّه عناية ملحوظة الى التزايد السريع جداً في عمران مدن

(1) Weber, The city, pp. 42-43.

أخرى. وهي حال لا تفارق مسألة جوهرية تتعلق برخاء الموازنة المالية أوترفها بالنسبة إلى المدن ذات التوسع العمراني المزدّهر وخلاف ذلك شحه في المدن الأخرى ذات المراتب الحضرية الأوطئ. فضلاً عن العوامل الإقتصادية التي أدّت إلى أرتفاع نسب البطالة والفقر والفاقة من دون خط الفقر وظهور الأحياء الأثنية الفقيرة التي تتسم بكونها بعيدة عن النظافة، إلى مشاكل لها علاقة بالنقل والمواصلات وتلّوث البيئة وفساد الجو والعزلة الإجتماعية والتوترات الإجتماعية المتطرّفة كالشذوذ الجنسي وانتشار المخدرات وتفشي الفساد(١).

فهل يعني هذا أن الدراسات الحضرية الأمريكية عن المدينة العربية مثلاً لا نفع فيها البتة لأنها لا تنظر إلى هذه المدينة، وفي أحسن الأحوال، أكثر بل أبعد من أنها مدينة قديمة لا تحاكي العصرنة الحضرية؟ الجواب على هذا يقودنا إلى تأشير خاصيّة حيويّة تعّ مدخلاً جوهرياً لمعايير ماكس فيبر. وهناك عنصران مهمان لهذه الخاصيّة هما:-

١- في الوقت الذي كان فيه المؤرخون الأوربيون يحتّلون مركز الصدارة في دراسات المدن الأوربية والعربية خلال العصور الوسطى أصبح الباحثون الإجتماعيون وعلماء الإجتماع الحضري الأمريكان هم الذين يؤدّون دوراً أساسياً في دراسة المدن. ونتيجة لذلك فقد انفتحت أبواب ومجالات جديدة في الدراسات الحضرية لم نشهدها في دراسات المستشرقين إبان نهاية القرن التاسع عشر وعقود العشرين الأولى. وحريّ بالملاحظة أيضاً أن علماء الإجتماع الحضري كما هو معروف منقسمون أو متوزعون في فلسفاتهم إلى مدارس واتجاهات في تفسير مشكلات المدن وأزماتها وتطورها الحضري وهي في بعض الأحايين متضاربة في محصّلاتها ومخرجاتها. فمنهم من يولي اهتماما ومركزياً إلى العاملين الإقتصادي والإجتماعي بوصفهما عاملين مؤثرين في تكوين المدن عموما والمدن الإسلامية منها على وجه الخصوص وكذلك بالنسبة الى فلسفة وجودها، ومنهم من يميل إلى الإعتقاد بإثر المحيط البيئي Ecolgy والسكّان. وقسم آخر يوجّه عناية خاصة إلى عامل الظروف البيئية الداخلية، وغيرهم ممن يعتقد بنظرية النقل والمواصلات بوصفها عاملاً مركّزياً في بنية المدينة وغير ذلك. وهاهنا تظهر أساسيات جديدة في تطوير دراسة المدينة العربية الإسلامية وإسهامات قيّمة.

٢- إما العنصر الثاني أو بالأحرى المتغير الثاني المتعلق بالخارطة الجغرافية التي

(١) م.ن. ص ٤١.

توزعت على أثرها الدراسات الأوربية بشأن المدن العربية والإسلامية، وأقصد حصراً تركيز الإستشراق الفرنسي الى دراسة مدن المغرب العربي، والأسباني الى دراسة مدن الأندلس؛ والألماني والإنجليزي الى دراسة مدن العراق والجزيرة العربية وإيران؛ والروسي الى دراسة مدن أواسط آسيا ومدن بلاد ما وراء النهر.

بإزاء ذلك فالدراسات الحضرية الأمريكية قد انحصرت اهتماماتها بدراسة مدن المغرب العربي ومصر. ويخيل أن السبب ذلك يرجع بالدرجة الأساس إلى أن الباحثين الأمريكان وانطلاقاً من عدم اكتراثهم وملاحقتهم لتواريخ المدن وللمؤلفات الأصلية عن المدن العربية الإسلامية القديمة لجأوا ـ وهو أمر في غاية الأهمية ـ إلى الأفكار بله النظريات الجاهزة للدراسات الأوربية بشكل خاص وذلك بهدف تزويدهم بمسوحات سريعة ومقتضبة وموجزة عن الجذور التاريخية للمدن العربية الإسلامية. إن هدفهم كما هو ملاحظ لا ينزع إلى التواريخ القديمة للمدن إنما على أحوال المدن الحضرية في الوقت الحاضر. وهناك أدلّة كثيرة على هذا المتغير لا مجال إلى إيرادها بالكامل.

فالحدود الزمانية التي تمحوّرت حولها معايير آشلي وماكس فيبر بخصوص المدن في العصور الوسطى أي قبل الثورة الصناعية بما أطلق عليها عالم الإجتماع الحضري جيدون بمصطلح Pre- Industrial Cities[1] كعنوان لكتابه القيّم والشامل. والأكثر من ذلك أهمية أن المقصود بتلك المدن من الناحية الجغرافية المكانية مدن أوربا الوسطى على وجه التحديد. وهي المنطقة الواسعة التي احتضنت مدناً تتمتع بجذور تاريخية قديمة. ومع توافّر هذين العنصرين الزماني ـ قبل الحداثة ـ والمكاني ـ أوربا فقط ـ فإن

---

(١) ينظر على سبيل المثال ما نشرته مجلة

Us, News and World Repotr July 3, 1978 (Worn Out Cities time bomb for taxpayers).

وهي مقالة مزوّدة بصورة عن المياه الآسنة في الشوارع أثناء الشتاء والأزقّة المملوءة بالحفر وطريق خدميّ على الطريق السريع High Way في غرب نيويورك قد أغلق لعدم صلاحيته. ونشر في جريدة The Christain Science Monitor 30 كانون الثاني ١٩٧٨ مقال بعنوان Cities shpuldlegislate morality يتحدث فيه عن الدعارة المنتشرة في الشوارع في نيويورك وقد نشرت جريدة Tallahassee Democrat في يوم الأحد ١٥ كانون الثاني ١٩٧٨ مقالات بعنوان Smallcities have: problems وفي الأحد ٥ آذار ١٩٧٨ نشرت صحيفة تلهاسي ديموقراط مقالاً بعنوان: Life not getting any better in the ghetto كذلك نشرتالصحيفة مقالاً آخر يحمل عنوان .Cities must have money to survive

نظرية فيبر قد أثرت تأثيراً مباشراً وفاعلاً في العلماء والباحثين الأوربيين في دراساتهم عن المدن العربية الإسلامية. وبالفعل فإن هذه الرؤى والمفاهيم الأوربية بشأن مدنهم في أوربا هي التي أثرت بدورها وبزخم كبير على مواقف الباحثين الأمريكان في علم الإجتماع الحضري وفي نظرتهم السريعة أوفي تقبلهم المباشر لفلسفة نشوء المدينة العربية الإسلامية القاضية بكونها من حيث المرتبة الحضرية تعادل الـ Town (البلدة) ولا ترقى إلى مستوى City المدينة.

يطوّر آشلي أفكاره التي صاغها أيضاً على هيأة معايير، في أصل المدينة، بخطوات هادفة، فإنه في بداية الأمر يؤكّد أن القلاع هي التي دفعت الناس في مختلف السبل إلى التجمع حولها أوبإزائها، ثم ينتقل إلى فقرة مهمة أخرى فيرى مفادها :- فلأن مساكن هؤلاء الناس الذين تجمّعوا واتخذوا مقرّات ومواضع سكنى لهم بحاجة إلى مدن يدافعون عنها ومؤسسات أو رجال ممن يقدم الخدمات لأولئك السكّان. فإن هذا التجمع حتّم وجود ثلاثة عناصر تمثّل التكوين الجماعي الأساس لذلك المكان وهي: العوائل (الأسر)، الجنود، الحرفيون أو المهنيون الذين تقع على عاتقهم توفير المستلزمات اليومية[1]. بعد ذلك يخطو ذلك الموضع أو المكان خطوته النهائية المتمركّزة على تأسيس المدينة Town بشكل عام؛ فهي وليدة القرية ولكن ليس أية قرية كانت إنما تلك القرى التي نمت نمواً كاملاً. فهذه القرى المتكاملة النمو لا تناظر القرى الأخرى إنما تتميز عنها بأربعة خصائص أو بما يفهم منه معايير وهي: -

١- إنها محصنة بخلاف القرية الإعتيادية، واصطلح آشلي على معيار التحصين بـ Bebesigt تقابل Fortified بالإنجليزية والكلمة Festung تعني الحصن.

٢- وهي جغرافيا تتمتع بحدود مكانية خاصة ومستقلة واصطلح آشلي على ذلك بفعل Befruiedet يقابلها بالإنجليزية .Enjoy a special place

٣- إنها تمتلك حق أو امتياز التجارة، وقد اصطلح هذا العالم على هذا بتعبير فعل Verke- hrsrecht usas megiandi يقابلها وبالإنجليزية .Possess the right of trade ويعلّق آشلي على هذا المعيار المهم بأنه من الخطأ تفسيره أوسع من ذلك على نحو

---

(١) ينظر:

Gideon, Sjoberg: The pre- industrial City, Past and Present (Taxas 1960).

وجود النقابات أو التعاونيات أو مجالس بلديات للقانون العام تكون معفاة من قضاء الـ Gau (ويحتمل أنه الـ Senate في المدن الرومانية القديمة). فهذه المجالس البلدية أو التعاونيات لها حقوق وأمتيازات مساوية لتلك الحقوق التي يتمتع بها الـ Gau بمعنى مجلس الشيوخ.

بهذه المعايير الثلاثة مجتمعة سوية يكون الأهالي هم المدافعون الأساسيون عن حصنهم Stronghold أو قلعتهم Burg ومن ثم فهم المواطنون burgenses أو Burgesses الأصليون الذين يتمتعون دوماً بامتيازات وحقوق المتاجرة، كما أنهم الأساسيون الذين يتمتعون بحماية بالغة موازنة بقرنائهم من القرويين.

٤- ينظّم هؤلاء الأهالي لأنفسهم مجتمعاً له محكمته الخاصة، ويعيشون أو يحيون في ظلّ قانون المدينة الذي أوجدوه هم بأنفسهم[(١)].

وتأسيساً على تلك المعايير الأربعة التي تعدّ خصائص مميزة للمدينة واختلافها عن القرية فإن آشلي يؤكّد أن أصل نشوء المدينة في هذه الحال هو القلعة؛ وجرت العادة أن يكون لها سور دفاعي دائري الشكل في بادىء الأمر ويبنى من التراب أو الخشب ثم زيادة في التحصين يحاط بخندق .Moat ويفترض أن هذه المدن بما أنها في الأصل قلاع ملكية فإن سكانها الأوائل هم بمثابة حامية من الجنود يكونون في حال تأهب دوماً وبما أصطلح عليه A standing garrison[(٢)].

حقيقة أن معايير آشلي كما مرّ ذكره قد انتزعت من تاريخية وواقعية المدينة الأوربية الوسيطة خلال مرحلتي الإقطاع والبرجوازية، بيد أنها تحسم الفكرة القائلة إن أصل المدينة يرجع أساسا إلى مرجعية واحدة لا غيرها، وتلك المرجعية هي القلعة. فالقرى الإقطاعية الكبيرة المتكاملة هي التي تحوّلت إلى حصون وقلاع من أجل حماية الإقطاعي الذي هو بدوره قد تحوّل على كرور السنين إلى ملك. وواقعياً فإن هذه المعايير تنطّبق على المدينة الحصن بشكل خاص من دون أن تنطّبق بالضرورة على جميع أصناف المدن التي كان للعوامل الدينية أو التجارية (أمصار الترانسيت) أو

---

(١) ينظر:

Ashley, The beginnings, p. 373.

(٢) م.ن ص ٢٨٢.

المدن الخاصة ـ الشخصية ـ أثر بارز في تأسيسها أو نشوئها. ويحتمل أن هذا السبب وأسباب أخرى أقلّ أهمية قد أدّت إلى أن تكون نظرية آشلي ومعاييره أضيق نطاقاً وأقل تأثيراً، إذ لم يتبناها مؤرخو المدن الأوربية أو العربية الإسلامية ؛ كذلك لم تدخل في حسابات علماء الإجتماع الحضري الأمريكان. وبخلافها فقد شاعت نظرية ماكس فيبر وعممّت معاييره الخمسة وصارت لها مرجعية قانونية أكثر بكثير من معايير آشلي، مع أن فضل النظرية الأولى واقع وواضح.

معايير ماكس ويبر الخمسة :- يحدّد ماكس فيبر في كتابه (المدينة) خمسة معايير لا أربعة وعدّها المعايير الأساس للتمييز بين المدينة والبلدة والقرية من جهة وكذلك لتأسيس نظرية الأصل في نشوء المدينة وهي :-

١- وجود الحصن والسور.Fortification

٢- وجود السوق بوصفه سمة خاصة تظهر مبدأ الإستقلالية التجارية.

٣- وجود محكمة أو قضاء يتمتع بقانون خاص يدعى قانون المدينة.

٤- ينبغي توافر نوع من النقابة أو المؤسسة النقابية وقد عبّر عن هذا المعيار بـ Form of association (أتحاد).

٥- وأخيراً ينبغي أن تتمتع بحكم ذاتي محلي مستند الى عملية انتخاب لأعضاء الجهاز الإداري وقد اصطلح فيبر على هذا المعيار بـ Auto chthony وهو مصطلح يقصد به البلدي أو المحلي، ويهدف فيبر إلى إبراز الحكم المحلي[(١)].

وكما يبدو فإن اتجاه ماكس فيبر يشمّ منه هو الآخر رائحة التأثر الواضح بمعايير آشلي. على أن نأخذ بالحسبان مبدأ الواحدية في تفسير نشوء المدن الأوربية خاصة، فالمدينة عنده أيضا تعادل الحصن أو القلعة. وكان ماكس فيبر مدافعاً عن نظريته هذه أمام النظريات الأخرى في أصل المدن بالكيفية التي تظهرها مواقفه من نظرية عالم الإجتماع الحضري الأمريكي جارلز كولي الناطقة بإثر عامل النقل والمواصلات بوصفه عاملاً أساسياً في نشوء المدينة. بإزاء هذه النظرية يقول ماكس فيبر إن جارلز كولي يحاول أن يعطي قدراً كبيراً لمواقع المدن، بمعنى موقع المدينة من شبكة النقل

---

(١) م.ن. ص ٨٣-٣٨٢.

البري والنهري والبحري. بينما يرى أن المدن في التاريخ الماضوي لم تكن كذلك، أي لم تنبثق نتيجة لواقع قربها من خطوط المواصلات؛ فهي مدن قلاع فضلاً عن أن هناك صنفاً من المدن يصعب علينا تفسير العوامل الأساس في نشوئها من دون النظر لأثر العوامل السياسية(١).

المدى الذي تحركت به نظرية ماكس فيبر حضرياً:

وبهدف توسيع المبدأ الذي انطلق منه ماكس فيبر في توظيف الأساس المصدري الذي بنى عليه نظريته في المعايير الخمسة، فضلاً عما سبق ذكره من مؤثرات ولا سيما تلك المتأثرة بمعايير آشلي، فضلا عن وجود تحديد واضح لخصائص المدينة اليونانية ويشابه تقريباً خصائص ومعايير فيبر؛ فقد أورد المستشرق الألماني فون غرنباوم في بحثه (المدينة الإسلامية والمدينة الهيلينية) وصفاً للجغرافي اليوناني بوسانيس البيرجيتي (من المحتمل نسبة إلى الكريتي، جزيرة كريت) المتوفى بعد سنة ١٧٦م وهو يتحدث عن مدينة بانوليوس (مدينة أغريفية لعلها تقع في جزيرة ديلوس) أو مدينة أخرى بالقرب من أثينا. فيقول بإمكان المرء أن يعطي تسمية مدينة حتى على تلك المواضع أو الأماكن التي لا تمتلك مؤسسات حكومية، ولا جمنازيوم، ولا مسرح ولا السوق، ولا مياه منحدرة إلى خزّان ـ ويقصد بذلك أنابيب أو قنوات لتزويد المياه ـ لكن العيش في مجرد ملاجىء تشابه إلى حد ما الأحجار الجبلية المطّلة على الوادي. ومع كل ذلك فلهذه المراكز حدود واضحة تفصل بينها وبين جيرانها، وكانت في العادة ترسل ممثليها إلى مجلس الشيوخ في فوشيا، ولعل المقصود بها ديلوس(٢).

فالجغرافي اليوناني بوسانيس في هذه الحال قد سبق آشلي وماكس فيبر بقرون كثيرة في فهمه بضرورة وجود خصائص ينبغي توفّرها في الموضع لكي يصحّ أن يصطلح عليه بالمدينة. مع أنه لم يطبّقها قسراً، إذ تسامح في أن يكون الموضع في مرتبة المدينة وإن لم يجمع هذه الخصائص الخمسة التي من دون أدنى شك قد انتزعت من مفاهيمية اليونان القديمة للمدينة التي تقع في مقابل المدينة التجارية ذات الأسواق. فمعايير

---

(١) ينظر:

Weber, TheCity p. 81-82.

(٢) ن.م. ص ١٦.

اليونان للمدينة يمكننا تشخيصها حسب الآتي :-

١- مؤسسات السلطة الإدارية ويوجد ما يظاهيها في معايير آشلي وماكس فيبر.

٢- الجمنازيوم ومع أنه يفّسر بميدان الألعاب لكن ربما يقصد به المدرسة أو الجامعة كما هو الحال في أسبارطة.

٣- المسرح بما يقابله عند الرومان Amphitheatre وهو استخدام للتعبير عن مركز المدينة إذ تعقد الإجتماعات العامة.

٤- السوق.

٥- وفرة المياه.

وتلك معايير ـ في الواقع ـ نابعة أصلاً من المفهوم اليوناني والروماني للمدينة، ونلحظ فيها غياب العنصر المهم الذي قد أسّس فيبر عليه نظريته وهو القلعة أو الحصن أي العنصر الذي يعدّ الأساس المركزي الذي تتمحور حوله معايير المدن الأوربية الوسيطة؛ حينما أدّت القلعة دور الملجأ أو المأمن الذي يهرع الأهالي إلى داخله بغية الإحتماء من أخطار الهجمات. فلم تكن هناك ضرورات ملحّة كالتي شهدتها أوربا الوسيطة في زمن الجغرافي اليوناني بوسانيس، فيظهر أن الحدود في أيامه كانت العلامة الواضحة والفاصلة بين المدن وكانت كافية لدرء أخطار الغزو الذي يشنّ عليها من المدن المجاورة بدلاً من القلعة أوالحصن أو السور.

نخلص من كل ذلك إلى القول بأن الأوربيين أعطوا ثقلاً بالغ الحدود وربما أكبر من قيمته الفعلية إلى المعايير الفيبرية الخمسة فجعلوها هي من دون غيرها الحدود الفاصلة بين المراكز الحضرية وإن معايير فيبر ومعايير أشلي الذي سبقه إنما هي نتيجة مباشر ة لحقبة محددة من تاريخ أوربا الوسيطة حقبة هيمن فيها الإقطاع وكان للقلعة الدور المؤسس لتجمع الأهالي ولجوئهم إلى هذه الح صون.

وعلى الرغم من الحدود الضيّقة التطبيق لمعايير ماكس فيبر فإنها ـ كما ذكر آنفا ـ قد أثرت بصورة ملحوظة في دراسات المؤرخين وغير المؤرخين الأوربيين الألمان والإنجليز والفرنسيين حين درسوا المدينة العربية الإسلامية أو الأحوال الحضرية في الشرق الأوسط؛ فهذا كتاب ألّفه الجغرافي كوستيلو عنوانه (التمدن في الشرق

الأوسط)[١]. نراه في الفصل الثاني الموسوم بـ (المجتمع الحضري في الشرق الأوسط في حقبة ما قبل التصنيع) يتحدّث عن المدينة الإسلامية ويتساءل فيمّا إذا كان لهذه المدينة أي ملامح عامة تميزها من غيرها من المدن أوربية أو آسيوية؟ ويجيب عن ذلك بالقول إنه من المفيد في هذا الصدد أن نقارن بينها وبين المدينة الأوربية الوسيطة، معتمدين على معايير ماكس فيبر الخمسة التي تميّز المدينة من غيرها من المراكز الحضرية، ويخلص كوستيلو إلى القول بأن للمدينة الإسلامية سوقاً وسوراً لكنها تفتقر إلى القانون والحكم الذاتي؛ لأن الشارع الإسلامية (بمعنى الشريعة) يرى في جميع المؤمنين أنهم متساوون سواءا سكنوا في مدينة Town أو بلد أو ربما قرية Country[٢].

لقد أتينا على ذكر البروفسور كاستيلو لنضرب مثلاً على الكيفية التي أستثمر فيها الباحثون الأوربيون معايير ماكس فيبر، وبالفعل فقد أثارت بعض تلك المعايير نقاشاً بين المستشرقين الأوربيين وهم يتساءلون:- هل هناك نقابة في المدينة الإسلامية؟ وهل المدينة الإسلامية تتمتع بحكم ذاتي أم لا؟ فعلى ذكر النقابة بالصيغة التي شهدتها المدينة الأوربية ومدى فاعليتها الإقتصادية والسياسية كان المستشرق الفرنسي لويس ماسنيون من بين المدافعين على وجود هذه المؤسسة في (الأصناف) أو النقابات المتوافّرة في المدينة الإسلامية؛ في حين عارض (شتيرن) الألماني ـ الإنجليزي ماسنيون في هذا الجانب.لقد افترض ماسنيون أن المدينة الإسلامية سواءا كانت في المغرب العربي أم في المشرق الإسلامي تنتظمها أربعة مراكز إقتصادية حيوية توزعت فيها النقابات المهنية (وتعرف في التاريخ الإسلامي الأصناف) وهذه المراكز الأربعة هي الأسواق. وافترض ثانياً أن هناك علاقة وطيدة بين تأسيس نقابة السوق بشكل مستقّل عن السلطّة مسلطاً الضوء على القرامطة والنقابة. فالنقابة الإسلامية بخلاف الأوربية قد اتسمت بسمة المعارضة لسلطة العباسيين. وهي كذلك تكوين ذاتي ولد وظهر بفعل الحاجات الإجتماعية وفي رحم المجتمع. وقد درس ماسنيون أنموذجاً من

---

(١) يراجع:

Robert Craves: the Greek Myths (Penguin Book(England 1966) vol, I p. 168.

مدينة Phocis تقع إلى الشمال من مدينة أثينا وتنسب إلى مؤسسها Phocus وهي تعني طائر القمر.

(2) Costello, V.F.:Urbanization in the Middle East (Cambridge Univ, Press, 1977) p. 8-9.

هذه النقابات التي وجدت في مدينة فاس في المغرب[١].

في المقابل يرى (شتيرن)[٢] بأن نظرية ماسنيون تبدو مهمة غير أنها تفتقر إلى الأدلّة التاريخية. ولذلك فهو يذهب إلى القول بغياب هذه المؤسسة من المدينة الإسلامية، كما أنه يحكم بخلّو هذه المدينة من معيار الحكم الذاتي المحليّ أو من أي مؤسسة إدارية أو بلدية. فأصول المدينة الإسلامية بحسب رأيه قبلية ـ بدوية. كذلك الحال بالنسبة إلى موقف البرت حوراني وغيره من المؤرخين.

وقفة مناقشة:

بهذه الكيفية إتجه تحليل مؤرخي ومستشرقي المدن الإسلامية من علماء أوربا الوسطى وعلماء الإجتماع الحضري في أمريكا. ولم يمنع البعض منهم من أن يردّد آراء الآخر الأقدم منه زماناً متخذاً مبدأ الاعتماد على الأفكار الجاهزة من دون أن يحاول إجراء حفر في النصوص التاريخية والجغرافية والأدبية العربية الإسلامية أو في أي مصادر أو مراجع أخرى. وبناء على ذلك لابد من توجيه الأنظار إلى مفاهيم عديدة في محاولة للدخول في مناقشة مع المستشرقين لمضامين معايير آشلي وماكس فيبر منها على سبيل الحصر:-

١- الملاحظ أن هناك شح في المكتبة الأوربية لدراسات عن المدن القديمة في أوربا. فكانت مثلاً تجربة ليفي المتوفى سنة ١٧م من التجارب الرائدة في كتابة تاريخ عن مدينة روما منذ تأسيسها. وكتابه ـ كما جاء في دائرة المعارف البريطانية ـ شامل في موضوعاته التاريخية ـ السياسية ـ الإجتماعية. واقتصر ليفي على تفسير روح الشعب الروماني والمجتمع الروماني من غير اهتمام ملحوظ بالكتابة عن النظم والمؤسسات

---

(١) ينظر ماسنيون في:

Massignon L. "Les corps de metiers et la cite Islamque" in Revue International de Sociology/ volume 28/1920/p. 473, idem "Enquets sur les corporation d,Ortisans et de Commercants an Marco" in Revue des Mond Musulman (L VIII/1924) P. 25.

(٢) كذلك بحث B.Lewis

"The Islamic Guilds" in the Economic History Review, Volume VIII, 1937, PP. 20-37.

في روما[1].

وقد انحصر الاهتمام الأوربي الجديّ في دراسة المدينة في العصر الوسيط وعصر النهضة، فكتابات هذه الحقبة تميزّت بالإتساع في رقعتها الجغرافية تحت الدراسة، فضلا عن التنوع في مجالات دراساتها ولا سيما دراسة فلسفة نشوء المدن وتطورها. كما شملت دراسة أصناف من المدن على وفق عامل واحد أو عوامل متعدّدة في تأسيسها كالمدن العسكرية والمدن التجارية ومدن القلاع.

٢- إزاء هذا التوجه المعرفي الأوربي المحدود قام العلماء المسلمون من مؤرخين وأدباء وبلدانيين وعلماء تراجم الرجال والطبقات بتأليف كتب ومجلّدات ورسائل عن مدنهم وأمصارهم، وكذلك عن مدن أخرى في دار الإسلام وفي ميادين حضرية متعدّدة.

ففي مجال تخطيط المدن، واعتماداً على ما أفصح عنه عالم الفهرسة ابن النديم في الفهرست فقد صنّف الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧هـ/ ٨٢٢ كتاباً بعنوان (أخبار مكة)، كما صنّف ابو بكر وأبو عثمان محمد وسعيد ابنا هاشم الخالديان كتاباً عن (أخبار الموصل) وألّف عمر بن شبه البصري مؤلفات عديدة عن المدن منها: كتاب البصرة، وكتاب الكوفة، وكتاب المدينة. وألّف الهيثم بن عديّ كتاباً أطلق عليه عنوان خطط الكوفة. وألّف أبو عبيدة معمر بن المثنّى كتاباً عنوانه (البصرة)، وألّف عبيد الله أحمد بن أبي طاهر المعروف بطيفور كتاباً بعنوان (أخبار بغداد) وألّف بحشل كتاباً اسمه (تاريخ واسط)، وألف أحمد بن الطيب السرخسي كتاباً في (فضائل بغداد وأخبارها) وهناك كتاب آخر له بعنوان (فضلائل بغداد وصفاتها). وألف ابن تمّام الدهقّان (فضائل الكوفة)، وألّف ابن زبالة كتابا (المدينة وأخبارها) وألّف ابن الكلبي كتاباً عن (الحيرة). وأبدع العلماء المسلمون في التأليف عن ميدان (البلدان) فقد ألف الجاحظ كتاباً عنوانه (البلدان) وألف أحمد البرقي كتاباً بهذا العنوان أيضاً وألف هشام الكلبي كتابين البلدان الكبيرة والبلدان الصغيرة، وله كتاب ثالث بعنوان الأقاليم. وهناك من وضع الكتب في ميدان الشؤون الإدارية مثل كتاب قضاة أهل المدينة. وقضاة أهل البصرة، وقضاة أهل الكوفة للمدائني، وكتاب أمراء البصرة وكتاب أمراء الكوفة

---

(١) ينظر بحث شتيرن:

Stern, S.M. "The constitution of the Islamic city" in the Islamic City (oxford 1970) pp. 25-50.

وأمراء مكة وأمراء المدينة لعمر بن شبه، وألّف الهيثم بن عديّ كتاب ولاة الكوفة وكتاباً آخر عن أمراء خراسان واليمن. وهناك من ألّف كتباً سلّط الضوء فيها على الدور الذي أدّته المدن في الأمور العسكرية بما يعرف بمؤلفات الفتوح، فألّف المدائني كتاباً عن (خبر البصرة وفتوحها) وكتاباً آخر عن (فتح الأبلة) وكتاباً ثالثا عن (فتح برقة) وكتاباً رابعا عن (فتح كابل) وكتاباً خامسا عن (فتح مكران)، وألّف ابن عبد الحكم كتاباً عن (فتوح مصر وأفريقية)[1].

ولم يقف المؤرخون العرب المسلمون في دراساتهم على موضوع له علاقة بحب الناس لمدنهم ومفاخراتهم بها ضداً لمدن أخرى بما يعرف بالمواطنة. إنه أدب فريد في نوعه أسهم إسهاما فعالاً في تزويدنا بمعلومات واقعية قل نظيرها وربما لا نجد نظيرها في المصادر الأخرى، فألف الهيثم بن عدي كتاباً بشأن (فخر أهل الكوفة على أهل البصرة) وألف الابهري كتاباً عن (فضل المدينة في مكة). ومن الجدير بالتنويه اليه أن أدب المفاخرة بين المدن العربية الإسلامية له صلة وثيقة بموضوع البحث هذا. فقد كان المستشرقان المعروفان بدراستهما عنالمدن الإسلامية وهما البروفسور كويتاين والبروفسور لابيدوس يؤكدان على أن المؤرخين المسلمين قد وضعوا الكتب والمؤلفات عن علماء المدن تعبيراً عن فخرهم وأعتزازهم بالمدينة التي أنجبت هذه النخبة من العلماء. والمستشرقان هنا يردّان على مواقف المؤرخين الأوربيين الذين شدّدوا على فرضية أفتقار أو غياب عنصر المواطنة بين أهالي المدن الإسلامية بخلاف - كما يرون - متانة روح المواطنة بين سكّان المدينة اليونانية.

إستمر التأليف عن المدن العربية الإسلامية وعلمائها في العصور المتأخرة؛ فهناك من كتب من علماء بغداد، وعن علماء دمشق، وعن علماء الأندلس وعن علماء الأمصار وعن علماء القاهرة وعن علماء مدن المشرق الإسلامي أمثال بخارى ونيسابور وأصبهان ومرو وسجستان وسمرقند وغيرها.

٣- وهناك نقطة جوهرية تختلف فيها المؤلفات العربية الإسلامية بشأن المدن عن نظيراتها المؤلفات الأوربية. فقد ابتدأ العلماء العرب التأليف عن المدن التي ينتسبون إليها بصفتها الفردية فيقولون تاريخ بغداد وتاريخ واسط وتاريخ فاس وتاريخ مكة وتاريخ القاهرة ثمّ بعد ذلك يتعرضون إلى الكتابة عن مجموعة من المدن كما فعل

---

(١) ينظر مقالة Livy في دائرة المعارف البريطانية، و د. طه باقر، مقدمة ج٢ ص ٦٤٧.

علماء الإجتماع الحضري في الدراسات الأمريكية مثلاً، وهو اتجاه له أبعاده المحلية لكنه في الوقت نفسه يقدّم موضوعاً متكاملاً عن هذه المدينة أو تلك.

فضلا عن ذلك هناك اتجاه آخر أقرب إلى المعاجم الجغرافية منه إلى دراسة المدن؛ فكتاب مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع لابن عبد الحق وكتاب تقويم البلدان لأبي الفداء هي مؤلفات معجمية في البلدان عموماً مرتّبة على وفق الحروف الأبتثية، إنها مؤلفات تعريفية ووصفية للمدن في دار الإسلام غير معنيّة بمدينة واحدة دون أخرى، ويقف على رأس هذه المعاجم التعريفية الكتاب القيّم معجم البلدان لياقوت الحموي.

والتفت العلماء العرب إلى مسألة تصنيف مؤلفات خاصة في السياسة المدنية وفلسفة اختيار المراكز الحضرية نظير كتاب ابن أبي الربيع (سلوك السالك في تدبير شؤون الممالك).

٤- والقاموس اللغوي العربي هو الآخر غني بالمفردات والتعبيرات التي تشير إلى مراكز حضرية وإلى توضيحات وتفسيرات حضرية. فالقواميس اللغوية التي انفرد بها الفكر العربي الأسلامي مقارنة بالفكر الغربي هي التي تزودنا دائما بمعلومات حيوية وفاعلة في الجانب الحضري مثل تعبير مصر وحاضرة والمدر والوبر والكورة والناحية والمدينة الى آخره. ومن خلال هذه المؤلفات يمكن جمع تعبيرات لا يوجد نظيرها في المعاجم الأجنبية نحو تعبير مدينة صغيرة ومدينة وسط ومدينة كبيرة ومدينة عظيمة، وهي تعبيرات مهمة كما سنتحدث عنه لاحقاً. ورب سائل يسأل عما إذا جاءت هذه التعبيرات مثل مدينة وسط أو بلدة أو بليد أو قرية كبيرة. . . الخ على نحو اعتباطي غير مقصود ومن دون رؤية واضحة للبنية الفيزولوجية للمدينة الكبيرة أو المدينة الصغيرة أم أنها جاءت متّسقة مع المتغيرات الحضرية التي تصنّف مراتب المدن وتميّزها من بقية المراكز الحضرية الأخرى مثلاً. إنه سؤال مشروع جداً، إذ إن الحماس الفكري العربي ربما يقود إلى إسباغ الكثير على ما أورده اللغويون أو البلدانيون. ولكن متابعة دقيقة لتوصيف البلدانيين لهذه المراكز الحضرية المتنوعة تبين بما لا يقبل الشك والمبالغة في أن الفهم الحضري العربي لم يكن بمثل هذه السذاجة والتخبّط. فاعتماداً على الأوصاف التي اعتمدناها في هذه المصادر وجدنا هناك خصائص مميّزة قد أنفردت بها المدن القصبات مثلاً من دون غيرها من المدن العادية فهي:-

أ ـ تتميّز بالسعة المكانية بمعنى المساحة.

ب ـ الكثافة السكانية والعمرانية.

ج ـ وجود آليّة إدارية مركزية نحو إقامة الوالي أو العامل أو توافر الدواوين المركزية. بإزاء المدينة القصبة فإن هناك خصائص نجدها محدّدة إلى درجة الثبات والقوة في مواصفات مدن العراق والمشرق الإسلامي والمغرب العربي. وقد أوضحت ذلك بأمثلة كثيرة في كتابي الموسوم بـ (دراسات في المدن العربية الإسلامية)، فضلاً عن ذلك فهناك نماذج من المدن التي نطلق عليها تسمية المدن التجارية أو مدن المرافىء أو الموانىء هي الأخرى تجمعها خصّال مشتركة، متشابهة بالقدر الذي يجعل مجال الإستثناء استثناء فهي مدن تتميّز بـ:

أ ـ الموقع الجغرافي والأستراتيجي الذي جعلها كذلك.

ب ـ المناخ.

ج ـ إنها مقصد للسفن النهرية والبحرية أو على طرق القوافل البرية.

د ـ وجود أسواق ومتاجر وفنادق وأسواق للصرف.

لكننا لا نجد تركيزاً على معيار المؤسسة الإدارية كما هو الحال في المدينة القصبة ولا نجد تركّيزاً على ضرورة توفر المياه الصالحة للشرب أو الأنهار كما هو الحال في المدينة الكبيرة او المدينة بصفتها المجردة. وهو أمر يدعونا إلى التأكيد مجدّداً على وضوح الرؤية والمفاهيمية الحضرية وليس تخبطها كما يرى المستشرق أكسفير بلانهول. ولنأخذ مثالاً على ذلك، فمدينة عدن في اليمن وصفت بأنها: –

أ ـ مدينة مشهورة تقع على ساحل بحر الهند (الموقع)؛ رديئة المناخ.

ب ـ لا ماء بها ولا مرعى وشربهم من عين تبعد مسيرة يوم. ومع كل هذه المنغّصات غير المشجّعة على التطور الحضري فإنها كانت مرفأ مراكب الهند.

ج ـ التجار يجتمعون فيها لأجل التجارة[1].

---

(١) أعتمدت بدرجة أساس على فهرست أبن النديم (طبعة رضا ـ تجدد) ص ١١١، ١١٢، ١٢٥، ١٩٥.

وهناك أيضاً توافق عندما يصف البلدانيون الموضع الذي يطلق عليه تعبير البلدة، فتوصيفه هنا يختلف عن توصيف الأنماط الحضرية السابقة. فيذكر الحموي مدينة واسط إبان عصره (أي القرن السابع الهجري / الرابع عشر الميلادي) إنها كانت بلدة عظيمة ذات رساتيق (مزارع) وقرى كثيرة وبساتين ونخيل يفوق الحصر وهي رخيصة الأسعار[1]. ويصف بلدة جويث قائلا: أنها بلدة تقع على شط العرب. دجلة العوراء) مقابل الأبلة بها أسواق وحشد كثير[2]. وهاهنا أيضا نجد غياب العناصر والمعايير الأساس التي تأسّست عليها مدينة القصبة أو المدينة المجردة أو البلدة.

ومن دون الخوض بالتفصيلات الكثيرة وحشد الإستشهادات والأدلّة الكثيرة التي لدينا التي تدلّل على الرؤية الحضرية الإسلامية فإن المتابع لتفصيلات أوصاف هذه المراكز الحضرية سينتهي إلى الإعتراف بوجود معايير أساس ترتكّز عليها هذه المراكز الحضرية وهي معايير أوسع من القرية في البنية الإجتماعية وفي الوظيفة الأدارية. إذ ليس من المفروض قطعاً أن تكون القرية بحجم البلدة أوبحجم المدينة عمرانياً وبشرياً. ومما يثير التعجب الملاحظة الذكيّة التي تتكرّر عند البلدانيين في التمييز على وفق خطوط واضحة بين القرية والمدينة، ولنأخذ مثالين رائعين:

١- الأول يشدد على عدد السكّان بوصفه معياراً للتمييز وبذلك فإنه يكون سابقا بقرون عديدة لنظرية السكّان الألمانية التي تجعل القرية:- الموضع الذي يسكنه ٥٠٠٠-١٠٠٠٠ نسمة والمدينة الصغيرة:- ٢٠٠٠٠ نسمة والمدينة المتوسطة:- ١٠٠٠٠٠ نسمة والمدينة الكبيرة:- ١٥٠٠٠٠٠ نسمة.

يقول ابن حوقل وهو البلداني متوفى في القرن الرابع الهجري / العاشر للميلاد ما نصّه بشأن مدينة الري وقراها:- "وللري سوى هذه المدن قرى تزيد في قدرها وجلالتها على هذه المدن كثيراً ولا منابر فيها مثل سدّوورامين وأرنبويه ووزرنين وقوسين وغير ذلك من القرى التي بلغني أن في أحدها ما يزيد من أهلها على عشرة آلاف رجل"[3].

---

(١) ينظر:

Xavier de Planhol: The World of Islam (New York 1959) p. 7-8, 18-19.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان (بيروت، دار صادر ج٤ ص ٨٩).

(٣) م.ن. ج٥، ص ٣٥٠.

٢- والمثال الثاني يشدّد على وجود المؤسسات. فيقول المقدسي البشاري المتوفى في الربع الأخير من القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي ما نصّه وهو يصف مدن جند فلسطين أو حسبما يسميه كورة فلسطين فيقول ما نصّه: - "ولهذه الكورة قرى جليلة ذات منابر أعمرّ وأجلّ من أكثر مدن الجزيرة (ويقصد هنا الجزيرة الفراتية) وهي مذكورة (بمعنى معروفة) غير أنها لم يكن لها قوة المدن في الآئين ولا ضعف القرى في الخمول وتردّد أمرها بين الرتبتين" أي بين رتبة المدينة ورتبة القرية.

والملاحظة المباشرة أن الآئيين كلمة معربة تعني الرسوم أو المؤسسة أو القانون.

فإن كان الجغرافي اليوناني باوسانيس قد حدّد معاييرا للمدينة اليونانية الأنموذجية إنطلاقاً من المفهومية اليونانية للمدينة ـ المركز ـ فإن العرب المسلمين قد ميّزوا أيضاً بين المراكز الحضرية المتنوعة أي بين المدينة ـ القصبة (المركز) والمدينة الكبيرة والبلدة والقرية الكبيرة مستندين على أسس ومعايير أساس يتناسق ومفهومهم الحضري المتأثر بمبادىء الإسلام وقيّمه. فالمعايير المفروضة على تحديد المدينة بالنسبة إلى جمهور الفقهاء تلقي ضوءاً ساطعاً على المشروعية في التحديدات الحضرية. إذ وضعوا شروطاً محدّدة بالنسبة إلى أي موضع من أجل أن يرقى إلى مرتبة المدينة. فاتفقوا على المعيار الأول المهم وهو الصلاة الجامعة فالصلاة الجامعة كما هو واضح لا تقام إلا في المسجد الجامع. والمسجد الجامع يعدّ النواة المركزية التي تنجذب إليها خطط المدينة ومخططاتها الطوبوغرافية؛ إنه يعدّ في الحقيقة بمثابة الـ Down Town في المدينة الأمريكية والـ Central Area بالنسبة إلى المدينة الأوربية.

من هذا المنطلق أصبح المسجد الجامع ثم صلاة الجمعة تعبيراً روحيّاً ورمزيّاً على تجمّع الناس وتركّزهم في موضع واحد وبأعداد غفيرة (في حالات يبلغ العدد أربعين ألفاً) لذلك فالفقهاء يرون بأنه لا يجوز إقامة صلاة الجمعة إلا في الأمصار. وهنا فنحن أمام مصطّلح يشابه المدينة؛ فالمصر لغة تعني الحدّ أو الحاجز بين أمرين أو حالتين وفي الحال التي نخضعها للدراسة هو الحاجز بين الصحراء والريف، فيكون المصطلح الجديد هو المدينة المصر الذي يختلف عن تعبير المدينة فقط. ولعل الجغرافي المقدسي هو الوحيد بين الجغرافيين المسلمين الذي يعرض مفهوماً متطوّراً آخر للمصر أبعد أثرا من التجذير اللغوي. فالمصر عنده يعادل العاصمة[1]. والذي

---

(١) م.ن. ج٢ ص١٩١.

يهمّنا أكثر فإن تعبير المصر قد اقتصر بوجه خاص على الأمصار السبعة التي أسسها المسلمون في أثناء عمليات الفتوح الإسلامية تأسيساً عمرانياً أو إدارياً ولكن في هذا المجال يحصر التعبير بشكل أضيق بمصرين فقطوهما البصرة والكوفة (ويطلق عليهما العراقين).

نعود ثانية إلى النظرية الفقهية بشأن إقامة صلاة الجمعة التي لا تجوز إلا في مدينة (مصر)، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديث شريف هو (لا جمعة ولا تشريق ولا فطر ولا أضحى إلا في مصر جامع)[1]. وفي حديث آخر ورد (إلا في مصر جامع أو مدينة عظيمة). وتفكيك نصّ الحديث الشريف يجعلنا أمام مفاهيم عديدة، إذ جمع الحديث الشريف بين عدة شعائر وقيّم ومناسبات إسلامية مع معيار الجمعة فالجمعة صلاة والتشريق تعني ليالي منى من أجل السقاية وهي ليلة الحادية عشر والثانية عشر والثالثة عشر. فقد تضمن الحديث الشريف أن العباس بن عبد المطلب[2] أستاذن الرسول أن يبيت بمكة ليالي منى (وهي ليالي أيام التشريق) لأجل سقاية الحجاج فإذن له. وأما الفطرة فالمقصود فيها عيد الفطر، كذلك بالنسبة إلى عيد الأضحى، فهما عيدان مرتبطان بالصوم والحج. والواقع ليس هناك من وجهة لمعرفة العامل الموجّه في الحديث الشريف لأن تجمع تلك الشعائر وتكون معايير شرعية ترتقي بالمكان الذي بأجتماعها يصبح مدينة عظيمة أو مصراً جامعاً، اللهم إلا في فحوى وهدف هذه الأعياد والمناسبات والشعائر الحضرية بمعنى ما تتضمنه من معاني الإقامة والإستقرار.

لقد هيأ هذا المعيار الشرعي في الصلاة الجامعة أذهان الفقهاء في مسألة تحديد شروط هذه الصلاة، فقد يجتمع نفر من المسلمين في البادية أو الصحراء ويؤمّهم أكبرهم أو أعقلهم أو أكثرهم تديّناً وصلاحاً فتعقد حينئذ صلاة الجمعة. فهل يجوز إطلاق تعبير المدينة على موضع مثل هذا الذي اجتمع فيه نفر من المسلمين في أثناء تجمعهم ؟ الجواب بحسب الفقهاء كلا، إذ لا يجوز إقامة الصلاة إلا في "وطنّ مجتّمع المنازل". وهنا تظهر الروعة في تحديد المكان الذي يعادل ما بين الموضع =

---

(١) أبن حوقل: أبو القاسم محمد بن علي، صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، ص ٣٢٢.

(٢) المقدسي البشاري، شمس الدين محمد بن أحمد: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (اعتناء دي غويه، بريل - ليدن ١٩٠٦) ص ١٧٤.

المدينة = المجتمع؛ فالإجتماع في المنازل وليس في الخيام يأخذنا إلى بعد له طابع الثبات في مستلزمات البناء، ويتجلي هذا الموقف أكثر فأكثر عندما يضيف الفقهاء اليه تحديداً آخر، فهذا (الوطن) ينبغي أن لا يظعن أي لا ينتقل عنه أهله لا صيفاً ولا شتاء، أي يجب توافّر مؤشر واضح الا وهو عزل البدو المترحلين المتنقلين دوماً وراء الكلأ والماء والمرعى عن هذا المفهوم الحضري المستقر فضلاعن دلالته في عزل البادية برمتها عن الحاضرة. عندئذ نتبين مدى الدقّة في تحديد الشريعة ومدى صرامتها من قبل الفقهاء في هذا المفهوم المؤشر الى الوطن المجتمع المنازل بما يعادل الوطن المستقّر الثابت الذي لا ينتقل ولا يهاجر عنه سكانه.

ويضيف الإمام أبو حنيفة معيارين آخرين إلى الصلاة الجامعة والوطن المجتمع المنازل، فقد حدّد المصر بأنه الموضع الذي من الضبروري أن يتوفّر فيه عنصران أساسيان: - أولهما السلطان (وهنا قد يعادل هذا اللقب الخليفة أو الأمير أو الوالي أو العامل تبعاً لمرتبة المصر ومركزيته الإدارية). فضلاً عن ذلك فإن الأمام أبا حنيفة بيّن وظيفة ومهمة هذا الموظف الإداري الذي يقف على قمة الهرم؛ فوظيفته إقامة الحدود (وهو تعبير دقيق جداً يعادل معيار تطبيق القانون وفرض الأمن والأستقرار). وثانيهما: لزوم توافّر القاضي ومهمته تنفيذ الأحكام[1]. فهذه الملازمة بين أقامة الحدود وبين تنفيذ الأحكام لدليل متماسك على معيارين ضرورين في الإستقرار الحضري من جهة وفي تشكيل البنية الداخلية للمدينة من جهة أخرى. ووجودهما يتخطّى بكثير المعايير التي طرحها الجغرافي اليوناني، كما أنها تعادل - في الوضوح والدقة - معايير آشلي بإشارته إلى أن المدينة هي مجتمع القانون، وكذلك معيار ماكس فيبر في المحكمة والقضاء[2].

فإذا ما رتّبنا هذه المعايير الفقهية ووضعناها موضعاً حضرياً منسّقاً فإن صلاة الجمعة يقصد بها لزومية توفّر القدرة البشرية والكثافة العددية للسكّان. وأن مهمة وجود السلطان والقاضي بقصد توفّير الأمن والأستقرار وتطبيق القانون. أما مسألة اجتماع المنازل فهو يشير إلى تطوير البناء والعمران في المواد الإنشائية الداخلة في البناء

(١) م.ن. ص ٧، ١٩٧.

(٢) ينظر: الزيلعي، جمال الدين عبد الله بن يوسف: نصب الراية لأحاديث الهداية، طبعة أولى ١٩٣٨، ج٢، ص ١٩٥.

الثبات والراسخ مقارنة بنصب الخيام والفساطيط وأكواخ القصب التي تمثّل مفهومية الوقتية والمرحلية وعدم الرسوخ[1].

هذا بشأن المفهوم الشرعي للمدينة المصر فإذا ما أضفنا إليه المفهوم الحضري الجغرافي فسيكون الأمر أكثر وضوحاً وتحديداً. إذ إن البلدانيين والجغرافيين قد فرضوا أيضاً شروطاً ومعايير لتوصيف المراكز الحضرية ورسم خطوط مميّزة لكل مرتبة من المراتب الحضرية للمراكز المستقرة. فالمقدسي البشاري[2] على وجه الخصوص يزوّدنا بمقولة توصيفية في غاية الأتقان والدقّة، فهو يصنّف المراكز الحضرية تصنيفاً هرمياً مع مراتب الدولة، فيقول:- "إعلم أنّا جعلنا الأمصار كالملوك (بمعنى الرئاسة، فالخلفاء أساس الدولة [وكذلك أنهم ليسوا بالكثير فالأمصار معدودة كما أن الملوك معدودون] والقصبات كالحجّاب [يبرز هنا عنصر الأهمية الإدارية التي تأتي بعد الخليفة أو السلطان في النظم الإسلامية والمؤسسات الإسلامية] والمدن كالجند [هنا يبرز عنصر الكثرة العددية فالمدن أكثر بكثير من الأمصار والقصبات ـ فضلاً عنه أنه يعرض جانب الثبات لأن الجيش ثابت والجند ليسوا كالمرتزقة من ناحية الثبات والرسوخ في ديوان الجند] والقرى كالرجّالة"[3]. ومباشرة بعد أن يفصح عن هذا الترتيب الإداري المتناسق إلى جانب الترتيب الحضري يقول:- "وإما نحن فجعلنا المصر كلمة بلد حلّه السلّطان الأعظم [هنا يريد به الإدارة المركزية] وجمعت إليه الدواوين [وهنا يقصد الإدارة المالية المركزية) وقلّدت منه الأعمال[4] [ويعادل مركزية الإدارة] وأضيف إليه مدن الأقاليم" [والمقصود بذلك المدينة وأقليمها أي الجانب الإقتصادي الذاتي]. ويكشف هذا العالم فوق ذلك، وفي مكان آخر من كتابه، عن معيار خامس إذ يصف المصر بأنه "كل بلد جامع" [وهو مرادف للمعيار الفقهي السابق أي وطن جامع] يقام فيه الحدود [وهو مرادف للمعيار الفقهي أيضاً الذي يشير إلى ضرورة فرض القانون ووجود الأمير والقاضي] ويحلّه أمير [وهنا المقصود

---

(١) م.ن.

(٢) ينظر: عبد الباقي، محمد فؤاد: اللؤلؤ والمرجان فيما أتفق عليه الشيخان، الكويت ١٩٧٧، ص ٢٠٢ حديث أخرجه الإمام البخاري من كتاب الحج، باب سقاية الحج.

(٣) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، القاهرة، ١٩٦٠، ص ١٠٣.

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٤٧.

المركزية والأستقلالية] ويقوم بنفقته [ويقابل الأستقلالية المالية الذاتية] وتجمع رستاقه"[1] [ويقابل الأستقلال الإقتصادي للمدينة وأقليمها].

مدى الواقعية في المعايير الأوربية والمعايير العربية الإسلامية

من الواضح الآن أن مسألة تحديد معايير للمراكز الحضرية في أي مكان كان سواء في الغرب أو الشرق يظهر مدى الدقّة والبلاغة من جانب علماء الإجتماع الحضري والعلماء العرب المسلمين بشأن الدافع إلى الوصول إلى حدود مميّزة لحلّ عنصر التشابك والفوضى في طبيعة استعمال هذه المدلولات الحضرية. إنه أمر يدلّ دلالة أكيدة على التنوّع الكميّ الذي أفرزته التحولات الحضرية وحركة الإنتقالات السريعة في الأنماط الإنتاجية الزراعية السائدة إلى أنماط أخرى متباينة في نوع وسائل الإنتاج وفي كمية الإنتاج إلى أنماط أخرى تجارية وصناعية ومهنية وعلمية ..الخ[2]. وهي حال جعلت المنظّرين في علم الإجتماع الحضري يندفعون إلى فرض تساؤلات عديدة أهمها الكيفية في تحديد المرتبة الحضرية للموضع الذي يطلق عليه تسمية مدينة أو بلدة أو قرية من الناحيتين المكانية والإنتاجية والأهم منهما السكانية. وهو ما نقصد به مساحة الموضع والنمط الإنتاجي الذي يسود نسيجه الإقتصادي وعدد ساكنيه. والعنصران الأول والثاني ربما يسهل تحديدهما على الرغم من النسبية المؤشّرة إلى عنصر المساحة. غير أن هناك تضارباً واختلافاً في آراء العلماء بالنسبة إلى العنصر الثالث وهو عدد السكّان، فهو معيار ضبابي ونسبيّاً ستشهد به فيلسوف التاريخ الإيطالي فيكو ليدلّل به على أحد الأوهام الخمسة التي شهر بها، وهو وهمُ الإشادة بالماضي. ورأيه في هذا الوهم أن المؤرخ، أي المؤرخ، يحاول دائماً أن يسبغ على تاريخ بلده ومجتمعه وعالمه عنصر المبالغة والتهويل والعظمة قياساً بمجتمع أو مجتمعات أخرى قريبة أو بعيدة فهو يذكر:- أن المهتمين بالمدينة الإقليمية الرومانية يرفضون بشدة التسليم بحقيقة أثبتها التاريخ وعلم الآثار الا وهي أن مدينة لندن كانت تحت الحكم الروماني لا تضم من السكّان إلا عدداً قليلاً يتراوح بين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف نسمة فقط[3]. ويقصد فيكو بذلك الوهم عند هؤلاء العلماء المهتمين

---

(١) م.ن.

(٢) م.ن.

(٣) كولنجوود: فكرة التاريخ، ترجمة محمد بكير خليل، طبعة ثانية ١٩٦٨، ص ١٣٧.

من علماء المدن لا يصدّقون ذلك لأن لندن حسب ما يحملون من إرث ثقافي هي لا بدّ من أن تكون مدينة عظيمة؛ إنهم يريدون على وفق المعيار الحضري أن يكون عدد نفوسها مثلا يوازي عظمتها بين خمسين ألفاً إلى مائة ألفا. وهو استشهاد يؤكد هذا الوهم الذي تخيّله علماء المدن في تاريخ لندن إبان تلك الحقبة التاريخية القديمة. وهو حقيقة لا اختلاف عليها في فهم واقعها الحضري والتاريخي المرتبط بالدولة ولاسيما إذا كانت دولاً كبيرة وواسعة.

لذلك أصبح معيار عدد السكان لأي موضع هو الحلّ الصائب لفكّ حال التشابك والغموض هذه في تحديد خطوط بيانيّة للمراكز الحضرية. فتوصل أنصار هذا الإتجاه إلى أن يحدّدوا أرقاما بدلاً من معايير كتلك المعايير الخمسة التي فرضها (فيبر)[١] وعلى الوجّه الآتي:-

أ ـ الموضع الذي يبلغ عدد ساكنيه ٥٠٠٠ خمسة ألف نسمة يطلق عليه قرية زراعية.

ب ـ الموضع الذي يرتفع عدد ساكنيه إلى ٣٠٠٠٠ ثلاثين ألف نسمة يطلق عليه مدينة صغيرة.

ج ـ الموضع الذي يرتفع عدد سكّانه إلى ١٠٠٠٠٠ مائة ألف نسمة يرقى إلى مدينة متوسطة.

د ـ الموضع الذي يكون عدد سكّانه ١٥٠٠٠٠٠ مليون ونصف فصاعداً فهو مدينة كبيرة[٢].

النتيجة الحضرية لهذا الخط البياني

إن لندن وباريس عند وضع هذه النسب تعدّ من المدن المتوسطة وأن جنوة والبندقية هي من المدن الصغيرة أما المدن الأوربية الأخرى فلعلها تقع في خانة القرى الزراعية.

بينما حدّد العلماء المسلمون حدوداً تجمع بين المعايير الخمسة الفيبرية (نسبة الى ماكس فيبر) وبين المنظور العددي للسكّان كالذي تمّت مناقشته في الأوراق السابقة.

---

(١) ينظر:

(2) Lopez: "The Cross Roads Whithin the Wall" in Historian and the City, p. 30.